مركز الأهرام للتنظيم وتكنولوجيا المعلومات
المصدر: الدستور
التاريخ: ١٩٩٧/١١/١٩

السادات رئيسا.. جيشى وشعبى ودولتى

ربما كان أول قرار اتخذه أنور السادات كرئيس قادم - لمصر هو تأخره عن حضور جنازة عبد الناصر ووصوله متأخرا إليها، وسواء فعل السادات ذلك لمرضه - كما إدعى - أو لخوفه من محاولة اغتيال كانت مدبرة له أثناء الجنازة - كما أدعى خصومه -، وسواء كان السادات قد انحنى لتمثال عبد الناصر فى مجلس الشعب صادقا أم منافقا، فإن السادات كان يعلم أنه وصل إلى الحكم بطريقة شرعية سهلة وعن طريق عبد الناصر وأن هذا هو سلاحه الأقوى للبقاء سليما وقويا فى مواجهة أعدائه، هؤلاء الأعداء جميعا لم يستطيعوا مقاومة السادات بشكل واضح، بل حاولوا - كما روى السادات نفسه - القيام ببعض المناورات معه لإقناعه بعدم ترشيح نفسه لئلا ترفضه الجماهير، وقال لهم السادات بوضوح «أنا أمتلك من الشجاعة لو رفضتنى الجماهير أن أجتمع معكم لنختار اسما آخر لترشيحه»، ويقول السادات إن هذه المناورات هى التى دفعته للتمسك بمنصبه بينما كان مقررا أن يظل نائبا للرئيس حتى إزالة اثار العدوان ثم يعتزل ويدعو لانتخابات حرة - ياسلام.. وقد تظن ولن يكون فى ظنك إثم أن أبرز أعداء السادات ومناوئيه فى هذه الفترة كان محمد حسنين هيكل - الذى حكى لنا كثيرا عن مواقفه المستريبة تجاه السادات - والغريب أن أبرز مساندى السادات فى هذه الفترة ومهندس عملية تثبيته على كرسى السلطة كان هيكل، ولا تتعجب إنها إرادة الله أو إنه ذكاء سياسى داهية حسبها صح وراهن على المستقبل، ولذا فقد قرر إدارة الحملة الانتخابية للسادات على أساس أنه كان الرجل الذى اختاره عبد الناصر لهذا المنصب، وأمام هذا المنطق لم يستطع جميع منافسى السادات أن يتحركوا، بل إن على صبرى أصدر أوامره للاتحاد الاشتراكى بتعبئة الجماهير فى صف السادات، وكذلك فعل الفريق فوزى مع الجيش، واكتفى حسين الشافعى باعتراض «متدارى» ثم وافق على أمل أن يحصل على رئاسة الوزارة فلما لم يحصل عليها قدم استقالته وسحبها بعد ذلك بيوم، ومرت الأيام ليحكى أن عبد الناصر قال له ذات يوم عندما طلب منه الشافعى تعيين السادات نائبا له «جرالك إيه يا حسين.. إنت عايز الناس تاكل وشى»، وليتهم على صبرى ومجموعته بأنهم وافقوا على تعيين السادات رئيسا لأنهم تصوروا أنهم سيتمكنون السيطرة عليه بما يمتلكونه من تسجيلات ضده، وكان الشافعى محقا فى هذه النقطة وقد أكد هيكل انه قال للبعض - لم يذكر اسماء - ممن تصورو أن السادات يسهل التأثير عليه، إن السادات يذكرة بنموذج النحاس الذى خلف سعد زغلول و تصوره البعض ضعيفا لكنه كان أقوى مما تصوروا وطردهم

واحدا واحدا. وبالطبع نجح السادات فى الانتخابات بسهولة - اغلبية ٩٠,٠٤/٪ وخلال الـ ٤٠ يوما التى تلت رحيل عبد الناصر وكما يرصد رشاد كامل فى كتابه «مؤامرة ومغامرة ١٥ مايو) فقد وقعت حادثتان على درجة كبيرة من الاهمية فيما يتعلق بالصراع بين السادات ومنافسيه، أولاهما رفض السادات قراءة مجموعة تقارير مراقبة مكالمات تليفونية واصداره قرارا بالغاء المراقبات التليفونية واعلانه لهذا القرار الذى سعد الناس به بينما أغضب مجموعة ١٥ مايو جدا، بالمناسبة الفريق محمد فوزى هو ابن خالة سامى شرف الذى كانت تتم المراقبة بأمر شفوى منه، وبعد ذلك روى سامى شرف لعبد الله إمام فى كتاب «عبد الناصر كيف حكم مصر» أن السادات طلب منه عدم إيقاظه بعد التاسعة مساء لأى ظرف حتى لو كان هناك تطور سياسى خطير، كما روى هيكل أن السادات رفض قراءة المجموعات الضخمة من الأوراق والتقارير الرسمية التى كان يتلقاها عبد الناصر كل يوم قائلا «عايزين تقتلونى زى ماقتلتم عبد الناصر بالورق ده». أما النقطة الثانية التى كسبها السادات فقد كانت إثر مقال شهير لهيكل فى ٧٠/١١/٦ عنوانه «عبد الناصر ليس أسطورة» أكد فيه أن عبد الناصر لم يكن له خلفاء، ولاصحابه، واثار مقال هيكل - الذى لم يشر إليه فى خريف الغضب - ردود فعل عنيفة قادها د. لبيب شقير رئيس مجلس الأمة الذى ناقش المقال بعنف امام السادات فى اجتماع رسمى، وفوجىء الجميع بالسادات يستدعى هيكل ليحضر المناقشة، ويقول رأيه ردا على د. شقير، وقد أثار ذلك غضب ضياء الدين داود الذى اعترض على استدعاء صحفى أو رئيس تحرير أيا كان لمناقشته فى اجتماع عالى المستوى كهذا - وكان هذا الهجوم وراءه حزازة شخصية فى نفس ضياء تجاه هيكل الذى «لطعه» لمدة نصف ساعة فى مكتبه قبل أن يقابله واعتبر عبد الناصر ذلك حطا من مكانة ضياء - ويعلق موسى صبرى على هذه الواقعة بأنها كانت محاولة لهز السادات والتخلص من هيكل كرئيس لتحرير الاهرام وكانوا قد أعدوا محاميا ناشئا من الاسماعيلية ليخلفه(!)، وربما كان هذا الموقف دافعا إضافيا ليساند هيكل السادات بكل ما أوتى من قوة رغم استقالته من منصبه الرسمى واكتفائه بموقعه فى الاهرام. الجولة الثالثة التى كسبها السادات كانت قرار تصفية الحراسات والذى طلبه السادات فى البداية من لبيب شقير وضياء داود، وعندما «طنشه» الاثنان ومعهما سامى شرف، أعد جمال العطيفى القرار وتم توزيعه على الجرائد فى ٢٩ ديسمبر ١٩٧٠. فى هذا الوقت كان رجاء النقاش قد اقترح على أحمد بهاء الدين اعادة طبع كتب السادات التى صدرت عن «دار الهلال» وتطوع بهاء الدين ليقول للسادات أنه من الافضل تلخيص هذه الكتب فى كتاب واحد وحذف ما لايليق نشره والسادات رئيس، ولم يصدر الكتاب كما أن هيكل روى أن السادات أمر

بسحب كل كتبه من السوق، كان رشاد كامل قد نبّه إلى أن فقرة من مقدمة عبد الناصر لكتاب السادات «صفحات مجهولة» أشاد فيها بشدة بالسادات قد حذفها بشكل غامض عندما أعيد طبع الكتاب سنه ١٩٥٧ ثم أختفت كل الكتب بعد تولى السادات لمنصبه. كل هذه الصراعات كانت مكتومة تدور تحت السطح لكن الذى أخرجها إلى النور وفجرّها كانت مبادرة السادات بوقف إطلاق النار التى أعلنها فى ٤ فبراير ٧١ والتى قال عنها «لم أخبر أحدا من مراكز القوى بمبادرتى هذه ففوجئوا بها يوم أعلنتها فأصيبوا بوجوم شديد».. وكما يقول المهندس سيد مرعى فى الجزء الثالث من «أوراقه السياسية» فإن المعارضة العلنية بدأت بعد الخطاب مباشرة بكلمات امتعاض قالها السيد على صبرى أمام الجميع، ثم تطور ذلك إلى جلسة عاصفة لمجلس الدفاع الوطنى روى تفاصيلها الفريق محمد فوزى والذى بدأ كما كشف الفريق محمد صادق رئيس الأركان فى الاعداد لخطة لبدء معارك الاستنزاف قائلا لصادق: إن السادات خرج عن الخط وأنهم يخشون أن ينقلب عليهم.. الشهادة المذهلة هنا هى شهادة جيهان السادات التى اذاعت سرا أن السادات اقترح فى ٧١ التوقيع على اتفاقية سلام مع إسرائيل عن طريق الأمم المتحدة تقول: «وحين شعر أعداء أنور بالرعب من هذا الاقتراح فقد بدأوا فى مضاعفة جهودهم للتشكيك فيه». مرت الأيام وجاء يوم ١١ مايو حيث كان مفروضا أن يلقى السادات خطابا بمناسبة عيد العمال، كان قد طلب من هيكل كاتب خطبه حتى ذلك الحين إن يعد له فقرة فى الخطاب خاصة بمراكز القوى ورفض هيكل ورجا السادات أن يكتب بنفسه هذا الجزء، وعندما ذهب السادات ليجد القاعة مليئة بصور عبد الناصر فهم الرسالة وارتجل فقرة عنيفة عن مراكز القوى التى يسقطها الشعب، وفى صباح اليوم التالى - كما روى السادات لموسى صبرى - اتصل السادات بسامى شرف ليطلب منه نشر إقالة على صبرى نائب الرئيس فى سطر ونصف ببنط صغير فى الجرائد، ووجه على صبرى بدوره فى ٣ مايو رسالة الى اللجنة المركزية يقدم فيها استقالته من اللجنة التنفيذية العليا. ومرت الأحداث ساخنة حتى جاء يوم ١٣ مايو، يروى السادات أنه علم بتدبير كمين له فى مديرية التحرير فى ذلك اليوم وجاءه ضابط بوليس شاب بتسجيلات تليفونية تكشف وجود مؤامرة لتصفيته، وقرر البدء بإقالة وزير الداخلية شعراوى جمعة وتعيين ممدوح سالم بدلا منه، وفى نفس اليوم جاءه أشرف مروان - مدير مكتب سامى شرف - باستقالات رئيس مجلس الأمة، ووزير الحربية، ووزير الاعلام، ووزير شئون رئاسة الجمهورية، وأعضاء من اللجنة المركزية العليا» وكان قصدهم إحداث انهيار دستورى فى البلد».. لكنه قبل الاستقالات جميعها وأجرى تعديلا وزاريا «ولم يحدث أى انهيار دستورى»، وكلف سيد مرعى - الذى روى التفاصيل بعد ذلك - بمهمة اسقاط العضوية عن رئيس المجلس والاعضاء والمؤيدين لمراكز القوى فى جلسة هزلية حضرها ٥٢ عضوا من ٣٦٠. ويرى محمود رياض فى مذكراته أن اعلان الاستقالات كان خطأ جسيما وأنه نصح سامى شرف بعدم تقديم استقالته ومع ذلك استقال، كما يروى محمد عبد

السلام الزيات كيف أن السادات عينه وزيرا للاعلام وطلب منه تأمين الإذاعة، فى كل هذه اللحظات كان هيكل هو أبرز القوى التى ساندت السادات ووقفت إلى جواره حتى مرت الأزمة وانفرد بحكم مصر. وكما يعترف هيكل فإنه كان أول شخص دعاه السادات للتشاور معه، وظل معه حتى انتهت الأزمة، ليكتب إحسان عبد القدوس «الله والشعب معه» ويكتب عبد الرحمن الشرقاوى «وسقطت عصابة الإرهاب» ويكتب موسى صبرى «ثورة مايو» وهو المصطلح الذى أعجب السادات فاعتبر أن ما حدث كان ثورة جديدة قادها لتصحيح مسار ثورة يوليو، وراح يحتفل - كما قال هيكل - بهذا اليوم احتفالات جديرة بثورته هو وليس بثورة عبد الناصر

وكما يرى د. غالى شكرى فى كتابه «الثورة المضادة فى مصر «فإن أدوات السادات فى انقلابه كانوا أربعة هيكل والليثى ناصف ومحمد صادق وممدوح سالم ولأن الأداة يمكن الاستغناء عنها فى أية لحظة فقد طرد الفريق صادق من منصبه وأحيل للمحكمة وكاد يساق إلى السجن لولا وقف التنفيذ، أما الليثى ناصف فقد انتحر أو نحروه، وأخرجوا هيكل من الأهرام بعد دوره مع السادات بحوالى عامين، أما الواجهات التى اختارها السادات لتغطية انقلابه مثل د. محمود فوزى والزيات وفؤاد مرسى واسماعيل صبرى عبد الله فقد تم التخلص منهم أيضا بينما بقيت الوجوه صاحبة المصلحة فى التغيير تتزحزح عن مكانها بل واقامت فيما بينها المصاهرات العائلية، كعثمان أحمد عثمان وسيد مرعى ومحمد عثمان اسماعيل وحامد محمود... المهم كان أول قرار اتخذه السادات بعد انفراده بالحكم - كما يروى هيكل - هو توقيع معاهدة للصداقة مع الاتحاد السوفييتى رغم أزاحته لاعوان السوفيت من السلطة وهو ما أثار دهشة الأمريكان الذين أنابوا الملك فيصل وكمال أدهم - فاكرينه؟ - لاجراء اتصالات مع السادات لاستمالته الى معسكر أمريكا واقناعه أن الحل فى يدها، ولأن «الزن على الودان» يأتى دائما بأفضل النتائج فإن السادات بعد أكثر من عام من اتفاقيته مع السوفيت وفى يوليو ٧٢ يعلن طرد الخبراء السوفيت من مصر بحجة تأخير السوفيت لامدادات السلاح فيسارع السوفيت الى امداده بالسلاح بشكل لم يسبق له مثيل، وكان قد أقال الفريق صادق الذى عارض طرد الخبراء السوفيت وأتى بالفريق أحمد اسماعيل على فى ٧٢ كانت البلد تغلى بمظاهرات الطلاب والعمال

التى يروى تفاصيلها د. غالى شكرى، والتى توّجت بمبادرة عدد من الكتاب والمثقفين وإصدارهم بيانا ضد حالة اللاحرب واللاسلام، وغضب السادات من توفيق الحكيم أبرز هؤلاء الكتاب وطلب من د. حاتم مقابلته، وبعد تدخل هيكل التقى الحكيم بالسادات وتحول الأمر

إلى إطراء دائم من السادات عليهم وتقليده لوسام النيل. وكما يقول هيكل فإنه كان يقابل السادات باستمرار فى هذه الأيام وكان يشعر بمأزقه الحقيقى وخوفه من انفجار البلد، كان السادات قد أرسل فى فبراير ٧٣ مستشاره للأمن القومى محمد حافظ اسماعيل الى واشنطن للقاء مع نيكسون ثم لقاء سرى مع كيسنجر تلاهما بعدة أشهر لقاء للسادات مع ديفيدروكفلر فى ٢٣ سبتمبر ٧٣، وفى مساء ذلك اليوم أحس هيكل أن السادات يتحدث جديا لأول مرة عن المعركة وأنه استقر على أنه ليس أمامه سبيل أخر، وقد كان لحالته النفسية أثار بالغة الحساسية فقد قال للسوريين أنه سينفذ خطة جرانيت٢ بينما نفذ خطة «جرانيت١» التى كانت تقضى بمجرد عبور قناة السويس والاحتفاظ بـ ٥ رؤوس كبارى على الضفة الشرقية، ولم يكن أحد - حتى السادات - يتوقع أن ينجح الجيش المصرى كل هذا النجاح ولذلك لم يتم استغلال هذا النجاح ولم يبدأ التخطيط للمرحلة الثانية إلا بعد ٦ أيام من بدء الهجوم وبعد أن تأخر الوقت إن السادات الذى قال لهيكل قبل الحرب إن الشعب لن يستطيع أن يلومه لو هُزم لم يستطع بعد تحقق الانتصار المذهل أن يرتفع مستوى تطلعاته ومطالبه، ولم يدرك حقيقة تغير الموقف، ولذلك وباختصار شديد فإن مقولة هيكل التى خصص لها كتابا كاملا رائعا وبديعا أن السياسة خذلت السلاح فى حرب اكتوبر كانت صحيحة تماما. وكما يقول د. غالى شكرى فإن ماحدث فى ثغرة الدفرسوار كان إعلانا للحرب البديلة التى قرر السادات خوضها ، وقد بدا وقتها أن المسافة، بين الوجه العسكرى المشرف للحرب والوجه السياسى هى مسافة مظلمة، وأن ماحدث بعد الاسبوع الاول من الحرب كان انتصارا للسادات الذى كرّس شرعيته وامتص الغضب الشعبى، وانتصارا لأمريكا التى تكرست لها السيطرة الكاملة على موارد النفط، ولاسرائيل التى استعادت زمام المبادرة الاستراتيجية، وكان ممكنا للسادات لو أراد أن يقوم بتجاوز أمجاد البطولة الوطنية فى التاريخ الحديث من عرابى إلى عبد الناصر ولكنه لم يفعل، لأن أحدا لا يتجاوز نفسه وإمكاناته الموضوعية.

إذن فقد بدأ السادات الذى أعلن فى كتابه أن الثغرة كانت مسئولية أمريكا وأنها كانت عملية تلفزيونية كان يستطيع تصفيتها لكنه لم يرد ليتفادى قتل فرد واحد من «شعبى وقواتى المسلحة»، لكنه فجأة بدأ لعبة المفاوضات السرية مع امريكا عن طريق القنوات السرية وليدعى أنه رغم قدرته على ضرب إسرائيل فى عقر دارها إلا أنه فضل السلام وبدأ محادثات فض الاشتباك الأول ثم فض الاشتباك الثانى لتضيع على أمتنا أقوى فرصة فى اغلاق ملف إسرائيل ولتبدأ نهاية السادات.